

التأويل الباطني

وأثره على الفرق في العالم الإسلامي

السيد. عبد اللّه طه أبو شاور

التأويل الباطني وأثره على الفِرَق في العالم الإسلامي (عرض ونقد)

السيد. عبد الله طه أبو شاور*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٧/١/١٦م   تاريخ قبول البحث: ٢٠١٧/٨/٩م

ملخص

يَتناولُ البحث مسألة التأويل الباطني وبيان أثرها على الفرق العقدية في العالم الإسلامي، ويبيِّن البحث مصادر التأويل الباطني، وخاصة المصدر الفلسفي اليوناني، وكيف تسلل إلى الفرق العقدية في العالم الإسلامي، ثم يعرض نماذج من التأويل الباطني للعقائد عند الفرق الباطنية والفرق الإسلامية، مُبينا خطورة التأويل الباطني بوصفه وسيلة خفية؛ لهدم عقائد الإسلام وتشريعاته من داخله، وبالتالي بيان موقف الإسلام الصارم من التأويل الباطني.

Abstract

This research tackles the issue of interior interpretation and attempts to show its influence on doctrinal sects in the Islamic world. The research shows the sources of interior interpretation (Greek, Jewish and Christian sources) and the way it sneaked into doctrinal sects in the Islamic world (Ibn Saba', fanatic Sufi and Khawarij). Examples of interior interpretation from some sects (Isma'iliyyah and Nusayriyyah) are presented. The danger of these interpretations is highlighted by showing that the interior way employed to from inside destroy the Islamic doctrine and legislation. Finally, the Islamic attitude from interior interpretation is given.

المقدمة:

الحمدُ للهِ رب العالمين، وأفضل الصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد كان التأويل الباطني وما زال مصدر خطر على الإسلام والمسلمين، بعد أنْ أدرك أعداء الإسلام أنَّ مواجهتهم للمسلمين وجها لوجه لن تجديَ في تحقيق أهدافهم؛ لذلك كان التأويل الباطني لعقائد الإسلام وشرائعه نتيجة لاتجاه قديم حديث في الكيد للإسلام والمسلمين، عن طريق الادعاء بحب الإسلام والتستر بحب آل البيت.

وفكرة التأويل الباطني فكرة خبيثة حاكها ودبرها عبد الله بن سبأ اليهودي، مدعياً موالاة علي بن أبي طالب ﷺ، ومهَّد الطريق بها إلى الحركات الباطنية التي اتفقت على هدم الإسلام من داخله والتشكيك بعقائده وتشريعاته؛ لذا، جاء هذا البحث؛ ليسلط الضوء على هذه المسألة الخطيرة وأثرها على الفرق العقدية في العالم الإسلامي.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من خلال النقاط الآتية:

١- بيان الفرق بين مفهوم التأويل الصحيح والتأويل الفاسد للنصوص الدينية، من حيث المنهج والباعث.

* باحث.

٢- تتبع أهداف التأويل الباطني للنصوص الدينية وبيانها، وخاصة هدف التخلص من أحكام هذه النصوص والتحرر منها، وهدف التوفيق بينها والرأي الذي يذهب إليه صاحب التأويل.
٣- بيان الردود العلمية على التأويل الباطني للنصوص الدينية؛ صيانة لمعاني القرآن الكريم.
٤- بيان مصادر التأويل الباطني القديمة والمعاصرة.
٥- توضيح آثار التأويل الباطني للنصوص الدينية على القضايا العقدية والفكرية الإسلامية.

مشكلة البحث:

تتلخص إشكالية البحث في الآتي:

يهدف الغلو في التأويل أو التأويل الباطني للنصوص الدينية إلى تفريغ النصوص الدينية من محتواها ونسخ معانيها، ويعتمد في ذلك على أساليب خفية ورمزية وفلسفية موهمة في تأويله للنصوص، مما يجعل بعض المسلمين ينخدعون في بعض هذه التأويلات خاصةً ما تعلق منها بآل البيت، وفي عصرنا الحالي يحاول دُعاة الباطنية المحدثين نشر أفكار الباطنية بطريقة ماكرة، وذلك بنشر كتب الباطنية القديمة على أنها كتب من التراث كالكتب التي يحققها مصطفى غالب، وعارف تامر، وغيرهم، فجاء هذا البحث؛ ليسلط الضوء على مسألة التأويل الباطني ومصادرها وأثرها على الفرق العقدية وبيان تأويلاتهم العبثية للنصوص الدينية، ثم بيان موقف الإسلام منها.

خطة البحث:

وستكون خطة البحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: معنى التأويل وأنواعه.

المطلب الأول: معنى التأويل لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أنواع التأويل.

المبحث الثاني: التأويل الباطني: نشأته ومصادره.

المطلب الأول: نشأته.

المطلب الثاني: مصادره.

المبحث الثالث: أثر التأويل الباطني على الفِرق العقدية.

المطلب الأول: أثر التأويل الباطني على بعض الفرق الإسلامية.

المطلب الثاني: أثر التأويل الباطني على العقائد الإسلامية عند الحركات الباطنية.

المبحث الرابع: موقف الإسلام من التأويل الباطني والفرق الباطنية.

المطلب الأول: وضوح النصوص القرآنية والنبوية.

المطلب الثاني: النصوص الشرعية بين الظاهر والباطن.

المبحث الأول:
معنى التأويل وأقسامه.

المطلب الأول: معنى التأويل لغة واصطلاحا.

أولاً: التأويل لغة: جاء في المعاجم اللغوية تعريفات كثيرة للتأويل منها ما ذكره ابن منظور، حيث قال: "الأول الرجوع، آل الشيءُ

يَؤُول أَأولاً ومآلا رَجَع وأَوَّل إليه الشيءَ **رَجَعَه** ... وأَوَّلَ الكلام وتَأَوَّله دَبَّره وقدَّره"[١].

وعرَّف ابن فارس التأويل، فقال: "تأويل الكلام، وهو عاقبتُهُ وما يؤُولُ إليه، وذلك قوله تعالى: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾** [٥٣: الأعراف]. يقول: ما يَؤُول إليه في وقت بعثهم ونشورهم"[٢].

ومن خلال التعريف اللغوي لمعنى التأويل الذي يدور حول: ما يؤول الكلام إليه ويرجع، قد نخرج بتعريفات اصطلاحية موافقة للمعنى اللغوي دون أي تعارض.

ثانياً: التأويل اصطلاحاً:

قبل ذكر أقوال العلماء في تعريف التأويل اصطلاحاً، أنقل الآيات والأحاديث التي جاء فيها لفظ التأويل في القرآن والسنة وبعدها أذكر تعريفاً اصطلاحياً موافقاً ومنسجماً مع هذه الأدلة.

١- قال تعالى: **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**[آل عمران: ٧].

٢- قـال تعالى: **﴿هَلْ يَنْظُرُون إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** [الأعراف: ٥٣].

٣- قال تعالى: **﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾**[يوسف: ١٠٠].

٤- قال ﷺ لابن عباس: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التأويل"[٣].

٥- كان ﷺ يكثر أنْ يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي. يتأول القرآن"[٤].

لقد جاء لفظ التأويل في هذه الأدلة، ومن خلال جمعها وبيان معانيها خرج العلماء بمعانٍ عدة اصطلاحية عدة لهذا المصطلح، وهي:

١) التأويل بمعنى **التفسير والبيان:** يقول ابن القيم في الصواعق المرسلة[٥]: "وأما التأويل في اصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنى التفسير والبيان، ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا يريد تفسيره"[٦]، ويدخل في هذا التعريف حديث ابن عباس: "اللَّهُمّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التأويل" وقال مجاهد: "والراسخون في العلم" يعلمون تأويله، ويقولون: "آمنا به"[٧] أي: تفسيره، بل إن الطبري سمى كتابه جامع البيان في تأويل القرآن.

٢) التأويل بمعنى: **عاقبة الشي التي يؤول اليها**، ويكون إما فعل أو وقوع بحسب سياق الكلام[٨]، ففي قوله تعالى: **﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾**[يوسف: ١٠٠]. هذا وقوع رؤياي وكان هذا بعد أن سجدوا له، وفي قوله تعالى: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾**[الأعراف: ٥٣] فالمعنى ما ينتظر هؤلاء إلا عاقبة ومآل ما أُخبروا به، "فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار"[٩] ومنها كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي. يتأول القرآن أي فعل نفس المأمور به أو العمل به[١٠].

يقول الجرجاني: "التأويل في الأصل الترجيع وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة مثل قوله تعالى: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾**[الأنعام: ٩٥]، إن أراد بها إخراج الطير من البيضة كان تفسير أو إن أراد به إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا"[١١].

المطلب الثاني: أنواع التأويل.

يقول تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[آل عمران: ٧]، في ضوء هذه الآية الكريمة يمكن أنْ نفهم أنواع التأويل في الفكر الإسلامي، خاصة وأن الآية الكريمة ربطت قضية التأويل بالمحكم والمتشابه ولذا يمكن عدّها الركيزة الأساسية التي تقوم عليها مسألة تأويل النصوص الشرعية.

وأشير في هذا السياق إلى القانون الذي ذكره الرازي في تفسيره موضحاً القانون الذي يعرف به المحكم من المتشابه فيقول: "فَلَا بُدَّ هَاهُنَا مِنْ قَانُونٍ يَرْجِعُ إليه فِي هَذَا الْبَابِ فَنَقُولُ: اللَّفْظُ إِذَا كَانَ مُحْتَمِلًا لِمَعْنَيَيْنِ وَكَانَ بِالنِّسْبَةِ إلى أَحَدِهِمَا رَاجِحًا، وَبِالنِّسْبَةِ إلى الْآخَرِ مَرْجُوحًا، فَإِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الرَّاجِحِ وَلَمْ نَحْمِلْهُ عَلَى الْمَرْجُوحِ، فَهَذَا هُوَ الْمُحْكَمُ وَأَمَّا إِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى الْمَرْجُوحِ وَلَمْ نَحْمِلْهُ عَلَى الرَّاجِحِ، فَهَذَا هُوَ الْمُتَشَابِهُ فَنَقُولُ: صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الرَّاجِحِ إلى الْمَرْجُوحِ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ مُنْفَصِلٍ، وَذَلِكَ الدَّلِيلُ الْمُنْفَصِلُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَفْظِيًّا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَقْلِيًّا(١٢).

وبناء على آية آل عمران السابقة نستطيع أن نقسم التأويل إلى نوعين رئيسين كالآتي:

النوع الأول: التأويل الصحيح وهو: التأويل المستمد من الدليل سواء كان بمعنى التفسير، أو عاقبة الشيء الذي يؤول إليه.

يقول ابن تيمية حول التأويل الصحيح: "في رأي رجال السلف الإسلامي هو التفسير وبيان المراد من النص القرآني أو الديني، وبهذا المعنى ورد كثيرا في القرآن نفسه وهو التأويل المقبول، ويقال على هذا المعنى أن الصحابة والتابعين كانوا يعرفون تأويل القرآن الذي فسروه كله، ومن ثم قال الحسن البصري من التابعين: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يُعلم ما أراد بها"(١٣).

النوع الثاني: والتأويل الفاسد وهو كما عرفه ابن القيم: "صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره"(١٤).

وإذا رجعنا إلى الآية السابعة من آل عمران نجد فيها أن الله –سبحانه– إنما ذم وشنع على الذين يبتغون في تأويلهم الهوى ويقصدون منه الفتنة، وأما الراسخون في العلم فليسوا كذلك؛ لأنهم أهل اليقين الثابت الذي لا يضطرب، وهؤلاء من الله عليهم بفهم المتشابه بما يتفق مع المحكم، فهم يعرفون متى يتوقفون كتوقفهم في أمور الغيب، وما استأثر الله بعلمه، فهؤلاء هم الراسخون في العلم بالله، حيث لم يزعزهم قطعهم بترك الظاهر، ولا عدم علمهم بالمراد على التعيين عن الإيمان بالله، والجزم بصحة القرآن"(١٥).

ومن **أنواع التأويل** الفاسد ما نقده ابن تيمية بشدة من تأويلات علماء الكلام والفلاسفة الذين اصطنعوا طريقة للتأويل؛ من أجل بث أفكارهم وآرائهم في القرآن والحديث في محاولة لمزج الفلسفة بالدين، وعدّهم الفلسفة أصلا يؤولون النصوص الدينية بحسبها لتتفق معها، لذلك يضطرون في بعض الأحيان عندما يجدون النص لا يوافق ما زعموه حقا بعقولهم إلى أن يقولوا: إن الرسل تكلموا على سبيل التمثيل والتخيل للحاجة إلى إفهام العامة(١٦).

والمعتزلة من الفرق الإسلامية التي سلكت في تأويل النصوص القرآنية طرقا وعرة وشاقة ضمن فلسفة تنزيهيه قائمة على فكرة التجريد في الفلسفة الإغريقية؛ لذلك نجد بينهم فيلون وابن ميمون تشابها كبيرا في بعض الأحيان؛ لالتقائهم جميعا عند نقطة واحدة، ألا وهي الإعجاب بالفلسفة الإغريقية، وقد كان لإعجاب المعتزلة بفكرة التجريد اليونانية نتائج لا تحمد عقباها، إذ ترتب عليها نفيهم للصفات الإلهية بدافع التنزية(١٧).

ومن أخطر أنواع التأويل الفاسد التأويل الباطني وعند علماء اللاهوت هو: تفسير الكتب المقدسة تفسيرا رمزياً أو مجازياً يكشف عن معانيها الخفية(١٨) وهو من أخطر التأويلات الفاسدة للأسباب الآتية:

١- قِدَم هذا التأويل وشدة تأثيره؛ فإنه يعدّ من المصطلحات القديمة جداً بدءاً باليونانية مروراً باليهودية والنصرانية.

٢- كان لهذا التأويل أثر كبير على الإسلام وخصوصاً عند ابن سبأ[١٩] اليهودي وكيف تمسك بهذا المنهج.

٣- انتشار هذا المذهب في الفرق الباطنية من الإسماعيلية، والدروز، والنصيرية، وبلورتها في قالب خاص بهم.

وعندما نرجع إلى الآية السابعة من سورة آل عمران، نرى أن الآية بينت لنا أن هناك من يبتغي فتنة المسلمين عن دينهم حيث يتخذون التأويل وسيلة لذلك، وهو ما نجده في الفرق الباطنية، إذ ليس غرض هذه الفرق فهم النصوص القرآنية أبداً، بل تفريغ النص الديني من حقيقته باستباحتهم لكل الضوابط اللغوية والشرعية، وسأبين في المبحث الثالث نماذج من هذا التأويل الخطير.

المبحث الثاني:
مصادر التأويل الباطني وانتقالها للعالم الإسلامي.

المطلب الأول: التعريف والنشأة.

التأويل الباطني: هو تأويل النص الظاهر بالمعنى الباطن[٢٠] تأويلا يذهب مذاهب شتى، وقد يصل إلى حد التناقض الخالص، فهو يعني أن النصوص الدينية المقدسة رموز وإشارات إلى حقائق خفية وأسرار مكتومة[٢١].

فالفرق التي ظهرت بهذه الدعوة الخبيثة كثيرة وهي فرق تحكم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم أسماء كثيرة فيسمّون الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، والتعليمية، والإسماعيلية، وتطلق على بعض المتصوفة، وقد خلط قدماء الباطنية كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على ذلك المنهج[٢٢].

إنّ هناك أسباب عدة أدت إلى ظهور مثل هذا النوع من التأويل في الديانات السابقة والفرِق العقدية في العالم الإسلامي وهي كالآتي:

١- ظهور مذاهب فلسفية كثيرة وخصوصا في الإسكندرية منها: الفيثاغورية المتأخرة، أو الحديثة، أو الأفلاطونية المهودة، والأفلاطونية المتأخرة أو الحديثة المعروفة بالمذهب الإسكندراني، فوضع العقائد الدينية الشرقية في تعابير الفلسفة اليونانية"[٢٣].

٢- وجود العرفانيين[٢٤]، حيث كان لهم أثر كبير كما عند الصابئة، والثنوية، والمانوية؛ وهذا لكثرة ما عندهم من أسرار واعتقادات ورموز "[٢٥].

٣- الترجمة: فلقد كان لها دورٌ مهمٌ في نقل أفكار التأويل الباطني وعقائده وهذا جعل الكثير يأخذ هذه العقيدة معتقدا له. وبدأت هذه الترجمة في العصر العباسي الأول سنة ١٣٢هـ /٨٠٠م وأكثرهم من النصارى"[٢٦].

٤- كثرة الرواد والمنسجمين من غلاة الشيعة الذين تأثروا بالفلسفة الفيثاغورية حباً لها، وأنها منسجمة مع أفكارهم وعقائدهم، وخصوصا الأعداد والحروف فعدّوا أن الحروف ترمز إلى أعداد، والأعداد ترمز إلى حروف، وأن للحروف خصائص خاصة"[٢٧]، وسأبين في المبحث الثالث المخصص لأثر التأويل الباطني على الفرق أسباب اتخاذ غُلاة الشيعة التأويل الباطني طريقا لإثبات آرائهم.

فهذه أسباب عامة من أجله ظهر التأويل الباطني، وهناك أسباب خاصة ذكرها عبدالرحمن بدوي أدت إلى ظهور مثل هذا التأويل، منها:

١- التحرر من قيد النص المقدس؛ ابتغاء التوفيق بينه وبين الرأي، الذي يذهب إليه صاحب التأويل.

٢- التحرر من قيد النص المقدس؛ للتوفيق بين ما يفهم من صريح اللفظ وما يقتضيه العقل"[٢٨].

المطلب الثاني: مصادر التأويل الباطني:

تتعدد المصادر أثرت في الفرق العقدية الإسلامية وغير الإسلامية، ويمكن تقسيمها إلى المصادر الآتية:

أولاً: المصدر اليوناني:

عند الحديث عن اليونانين لا بد أن نتكلم عن المدرسة الإسكندرانية[٢٩] التي انتشرت بين القرن الثالث (ق.م) والقرن الثالث (ب.م) وانبثقت عنه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والذي يقوم على خصائص معينة أهمها: الدقة في التفكير، والغموض في المعاني، والتعبير عن الحقائق بالرموز[٣٠].

ومن أبرز رجالها وفلافستها القائلين بالتأويل الباطني أفلوطين {٢٠٣-٢٦٩م}.

ويعد أفلوطين من الأقطاب عند اليونانين ومن تلاميذ أفلاطون، وكان يلخص أفكار أفلاطون بطريقة أقلصعوبة منه حتى تكون مفهومة للأذهان، وإن لأفلوطين مقالات كثيرة في الأخلاق والطبيعة والعقل والواحد وقد رتبها له تلميذه فرفوريس. وتتلخص أفكاره كما ذكرها د. عمر فروخ في كتابه تاريخ الفكر العربي ولخصها د. محمد الخطيب بطريق أسهل للأذهان، فقال: "وتتلخص أفكار أفلوطين فيما يأتي:

١- الله: في رأي أفلاطون أنه كائن مطلق بسيط لا يدركه الوصف؛ لأنه فوق الإدراك.

٢- الفيض والعلم: وقف أفلوطين أمام مشكلة هي (خلق العالم)، ورأى أن القول بقدم العالم على ما قال أرسطو يقود إلى الكفر، وأن القول بخلق العالم حسب ما وردت به الروايات الدينية مناقضة للفلسفة، فأراد أن يلفق مذهبا لا يثير به رجال الدين ولا يخالف الفلسفة في الظاهر، فتبنى رأي أفلاطون في الفيض بعد أن خرج من نطاق الفلسفة إلى نطاق الدين، فقال: إن الوجود الأول هو الله، وأن الله يتأمل ذاته فيعقل بذلك نفسه (أي: يعلم أنه موجود) حينئذ يفيض أو يصدر عنه كائن واحد هو (العقل) الأول، هذا العقل هو صورة الله ولكنه ليس الله نفسه. ويعود هذا العقل الأول فيتأمل ذاته فيصدر عنه كائن آخر هو (النفس الكلية) التي تملأ العالم، وترجع النفس الكلية بالتأمل في العقل الأول فيفيض منها كوائن متعددة هي نفوس الكواكب ... ثم يستمر الفيض فيصدر عن كل كائن كائنات أخرى أقل شبها بالعقل الأول المطلق (البريء من المادة) وأكثر صلة بالمحسوسات، حتى تفيض الهيولى، وهي أدنى دركات الفيض؛ لأنها مادة مطلقة فوضى لا صورة لها ألبتة، وهكذا نلاحظ أن الفيض إنما هو -تسوية- بين الروايات الدينية في خلق العالم، والرأي الفلسفي، ورأي أرسطو على الأخص.

٣- الإشراق والمعرفة: وهو ورود المعرفة على النفس مباشرة من الملأ الأعلى من غير أن تطلبها النفس، وهذا النوع من المعرفة هو المعرفة الصحيحة[٣١].

وقد جاء بعد أفلوطين تلاميذ له وأنصار لمذهبه كفيلون وبولس أوريجانوس وكان لهؤلاء الأثر الواضح في امتداد أفكار الأفلاطونية الحديثة إلى عقائد الأمم الأخرى ومن ثم وصولها إلى المجتمع الإسلامي.

ثانياً: المصدر اليهودي:

من المعلوم أن اليونانين غزو فلسطين وعاشوا فيها مدة من الزمن، مما جعل اليهود ينصهروا بهم بشكل كبير في معيشتهم وحياتهم حتى وصل بهم الأمر أن تركوا دينهم وصاروا أكثر وثنية من اليونانين أنفسهم، وفي هذه الفترة بدأ تأثير الفلسفة اليونانية عند اليهود.

واستطاعت الفلسفة اليونانية من خلال التأويل الباطني أن تؤثر على مفكري الأديان السماوية، وكان لهم أثر كبير جداً على فهم أحكام الدين وقواعده، وكان من أوائل من قام به فيلون اليهودي {٢٥ ق.م- ٥٠ب.م} وفيلون هو: "أحد الفلاسفة الذي

نشأ في جوّ ديني، افتتن بالفلسفة اليونانية، فجعل هدفه في الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة، وآراء اليونانيين وبخاصة فلسفة أفلاطون من جهة أخرى، وأن السبب الذي دفع فيلون بالقول بالتأويل الباطني ما قام به المفكرون اليونانيون على ما في التوراة من قصص وأساطير ساذجة أو غير معقولة على حد زعمهم، مثل: برج بابل، والحية التي أغرت حواء في الجنة، وغضب الله، وأحلام يوسف، فاضطر فيلون للدفاع عن التوراة بتأويل هذه المواضع الأسطورية وغير المعقولة الواردة في التوراة تأويلا بالباطن"[٣٢] ولكي يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدأ القائل: إن جميع الحادثات والأخلاق والعقائد والشرائع المنصوص عليها في العهد القديم ذات معنيين: مجازي وحرفي، وأنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية، وكان فيلسوفا أكثر مما كان رجل دين"[٣٣].

وإن كنا نعلم أن فيلون أخذها من اليونانيين بل أن هناك يهود قبله يقولون بالتأويل الرمزي ولكنه امتاز بأن جعل للتأويل مذهباً قائماً برأسه ومنهجا في الفهم من أجل الدفاع عن التوراة فعد أن التأويل بالباطن أنه روح النص المقدس[٣٤]، فأراد أن يوفق بين المذاهب الفلسفية، والروايات الدينية؛ وهدفه في ذلك حتى لا يزعزع الأسس الدينية، فقام بأمرين:

١- إقامة أدلة فلسفية على صحة الدين عموما.
٢- تأويل الروايات الدينية على شكل لا يخالف الفلسفة ولو بتشويه الآراء الفلسفية، فبدأ التلفيق في النصوص فنتج التناقض والضعف، وكان تركيز فيلون اليهودي يدور حول شرح التوراة شرحا رمزيا، فحواء كناية عن الحس، والحية كناية عن اللذة[٣٥].

بل نجد الأخطر من ذلك، أن فليون اليهودي حاول أن ينفي الصفات الموصوفة عن الله في التوراة، فاستخدم رموزاً أخرى عن الله، فمثلا عدّ الكلمة "هي الابن الأول لله، والعالم الابن الثاني لله، وعدّ فيلون أن الملائكة خلقهم الله من الرضا والشياطين من الغضب"[٣٦].

ومن الفرق اليهودية التي تأثرت بفيلون فرقة (القِبالة اليهودية)، "والقبالا هي هذا الفكر العبري الباطني المأخوذ من الجذر (ق، ب، ل) بمعنى الاستلام، والاستلام يفسر بالقبول، ومعنى القبول هو الإجابة إلى الشيء سراً، هذه الاستجابة السرية تفرض على المتقبل لهذا الفقه أن لا يعلنه، فالإعلان هو شيء يقلل من قيمة الشيء"[٣٧]، وتُعدّ القبالا عند اليهود مجموعة من التفسيرات والتأويلات الباطنية التي تربط الإنسان بالإله[٣٨].

ثالثاً: المصدر المسيحي:

انتقل التأويل إلى النصارى من فيلون اليهودي فساروا إلى ما سار عليه منهجه، مدافعين عن هذه الفلسفة المنبثقة من الأفلاطونية، وكان على رأسهم يوستيسنوس الشهيد الذي أول هذه الجملة في التوراة التكوين {١١: ٤٩}، "غسل ثيابه في الخمر ورداءه في دم العنب" أي: أنه سيطهر المؤمن الذي يسكن فيه اللوغوس (الكلمة) بدمه الذي يأتي من أمه مثل عصير العنب وجعل مدلول هذه العبارة[٣٩] "ستكون الحكومة على عاتقه" أي: أن المسيح سيشنق على الصليب {سفر أشعيا ٦: ٩}.

ومن الشخصيات التي لها تأثير مهم في الديانة النصرانية بولس، فلقد أوّلَ نصوص التوراة؛ ليدافع عن عقيدة التثليث.

ثم ظهر الزعيم الذي ينسب إليه الاتجاه الفلسفي في المسيحية والذي تأثر بأفكار فيلون اليهودي تأثرا كبيرا وهو **أوريجانس**، ففسر الكتاب المقدس (العهدين القديم والحديث) على ثلاثة أوجه:

١- فالرجل البسيط يكفيه "جسد" الكتاب المقدس.
٢- الرجل المتقدم في الفهم يدرك روح هذا الكتاب.
٣- الكامل من الرجال هو الذي يفهمه بالناموس النفساني الذي يطلع على الغيب.

ولكن هذا التأويل لاقى معارضة من المدرسة الأنطاكية وعلى رأسهم لوقيان، وأرستساثيوس الأنطاكي، وغيرهم[٤٠].

ويطلق على تأويلات مدرسة أوريجانوس الاتجاه الفلسفي، وثمة اتجاه آخر في تأويل نصوص الإنجيل هو: الاتجاه الديني وهو يرى تأويل الكتاب المقدس وتفسيره؛ ليتفق مع العقيدة، ويمثل هذا الاتجاه عدد من رجال الدين أمثال أوغسطين وتوما الإكويني من بعد، حيث رأوا ضرورة التأويل المجازي[٤١].

وسبب التباين بين الاتجاهين مع اتفاقهم على ضرورة التأويل المجازي فيعود إلى أن أوغسطين والإكويني رجال دين أولاً قبل أن يكونوا فلاسفة، لذلك لم يحاولوا قسْر الكتاب المقدس على أن يتفق حتما مع الفلسفة[٤٢].

ويرى بعض الباحثين أن ظاهرة التأويل المسيحية أو المسيحية المفلسفة قد ارتبطت بالخلاف الذي دب بين أتباعها حول طبيعة المسيح، ويُعدّ هذا أهم الأسباب التي دعت فلاسفة المسيحية ورجال دينها من الخوض في التأويل، فمنذ مطلع القرن الأول للميلاد بدأ النزاع حول المسيح نفسه أإله هو أم إنسان؟ وهل هو الذي صلب أم كان غيره المصلوب؟ وما مقام مريم أهي والدة المسيح الذي هو الله –سبحانه– أم والدة عيسى الذي هو الإنسان[٤٣]؟

إلى هنا نشعر أن ثمة ترابط وثيق بين الديانات السابقة من اليونانية واليهودية والنصرانية في مسألة التأويل الباطني، وأن هناك تدرج بين الديانة والتي تليها في تصعيدها ووضعها في قوالب وضوابط عندهم، ولكن السؤال المهم هل هناك ثمة علاقة بين هذه الديانات وما جاءت به، والإسلام؟ وهل تأثر الإسلام بهذا التأويل؟ ما هو مدى هذا التأويل؟ وأين وقع التأويل من الإسلاميين؟

هذا ما سأبينه في المبحث القادم.

المبحث الثالث:
أثر التأويل الباطني على الفِرق العقدية.

المطلب الأول: تأثر بعض الفرق الإسلامية بالتأويل الباطني.

أولاً: أهم العقائد الباطنية لعبدالله بن سبأ وأثرها على بعض الفِرق الإسلامية:

لا بُدَّ عند الحديث عن أثر التأويل الباطني أن نتكلم عن شخصية عبد الله بن سبأ الذي كان له أثر كبير على الإسلام، بإدخال عقائد مأخوذة من الديانات اليونانية واليهودية والنصرانية ولكن وضعها في قالب الإسلام كذباً وتزويرا وتآمرا.

وابن سبأ شخصية يهودية حيث تظاهر بالدخول في الإسلام ليهدمه شيئا فشيئاً، وكما يروي الطبري فإن ابن سبأ: "أسلم زمن عثمان ﷺ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول إضلالهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد على أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم فقال لهم فيما يقول: لأعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[القصص: ٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[٤٤].

فأقر ابن سبأ هذا التأويل وهو رجوع محمد ﷺ وهو تأويل باطني وعلى أثره قال بالرجعة، وهي عقيدة عند اليهود حيث يعتقدون: "أن البعث يكون للصالحين من أمواتهم فقط، وأن بعث هؤلاء سيحصل في الحياة الدنيا"[٤٥].

ونشأ عن القول بالرجعة مذهب التناسخ[٤٦]، وقالت به باقي حركات الغلو الأخرى، وهذا يعني أن عبد الله بن سبأ حاول أن يوجد نفس العوامل الشبيهة التي أدت إلى تحريف وتأويل التوراة والإنجيل من قبل، على غرار ما فعل فيلون وطائفة

القبالية[٤٧]. فكان نشره لمبدأ الوصاية بمعنى أن علياً وصِيُ محمد ﷺ من جملة هذه العوامل التي أراد أن تتحقق؛ لذا نجده ينادي بعد ذلك بحلول جزء إلهي في عليّ وذريته وهو المذهب الذي يرجع إلى المؤثرات اليهودية والمسيحية المأخوذة من الفلسفة الأفلاطونية"[٤٨].

ومبدأ الوصية يعني أن: لكل نبي وصي، وَكَانَ علي وصي مُحَمَّد ﷺ، ثُمَّ قَالَ: مُحَمَّد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ثُمَّ قَالَ بعد ذَلِكَ: من أظلم ممن لم يجز وصية رَسُول الله ﷺ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة! ثُمَّ قَالَ لَهُمْ بعد ذَلِكَ: إن عُثْمَان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ"[٤٩].

بل إن الطريقة التي نادى بها ابن سبأ لمحاولة تخريب الإسلام من داخله هي كطريقة بولس في تخريب الديانة المسيحية آنذاك؛ بل إن من العلماء من يجعل هاتين الشخصيتين شخصية واحدة في تشويه الدين.

وبولس هذا اسمه شاؤول، وهو رجل يهودي ولد في طرطوس، وكان ينتمي لفرقة الفريسيين اليهودية مثل والده، ولذلك نشأ على عقائد ومبادئ هذه الفرقة اليهودية المتشددة، وقد تأثر بولس بمدرستين: الأولى في طرسوس، وهي مدينة من المدن التي شاعت فيها الفلسفات والأفكار اليونانية، والثانية المدرسة اليهودية الفريسية[٥٠].

ويبين الشيخ محمد أبو زهرة أن بولس كان يمتاز عن غيره بثلاث صفات، فقد كان نشيطا دائم الحركة، وألمعيّ الذكاء بارع الحيلة، وكان شديد التأثير في نفوس الجماهير [٥١].

حاول ابن سبأ أن ينكر موت علي بن أبي طالب حسب هذه العقيدة فضلا عن تأليهه، بل زعم أنه سيرجع في آخر الزمان ويكون رجوعه من السحاب، فقال فريد ليندر: "إن دور ابن سبأ الرئيسي لم يكن في تأليه عليّ، بل في إنكار موته قائلا إنه لم يمت في الحقيقة وأنه سيرجع من السحاب[٥٢].

ولم يقف القول بالتأويل الباطني عند ابن سبأ فقط، بل بقي نفث السموم في تلامذته الذين ساروا على ما سار عليه سيدهم الضالّ كالمختار الثقفي الذي زعم أن جبريل يأتيه بالوحي[٥٣].

فها هو **المختار الثقفي** جعل محمد بن الحنفية هو الإمام بعد أبيه، ويعتقد أن السبب أنه هو حامل راية أخيه يوم البصرة فسموا الكيسانية فقال بعقائد فيها القول بالبداء وهو الظهور بعد الخفاء، أي أن تكون الحكمة قد ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل، وهذا يستلزم البداء، وسبق الجهل على الله ﷻ، وزعم أن جبرائيل يأتيه بالوحي من عند الله، ثم قالوا بالتناسخ والرجعة[٥٤].

ثانياً: التأويل الباطني عند غلاة الصوفية.

لا تختلف الصوفية عن غيرها من الفرق الغالية في تأويل النصوص فلا يخفى على أهل السنة ما وصل إليه الصوفية من الغلو حتى قالوا بوحدة الوجود[٥٥] وأن كل المخلوقات هي الله، يقول ابن عربي: "فهو من حيث الوجود هو عين الموجودات"[٥٦].

وكذلك تأويلهم لآيات القرآن، فنرى أنهم أتوا بالعجائب، فهذا ابن عربي يفسر "قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[البقرة: ٦-٧]، التي أشار إليها شيخنا الحافظ أبو زرعة بعدما كتبه لي بخطه من حفظه بالمعنى على ما ذكر وربما فاته بعض المعنى في كلامه فهو ما حدثني أبو زرعة فذكره باللفظ، قال: سمعت والدي –رحمه الله– غير مرة يقول: سمعت القاضي برهان الدين بن جماعة يقول: نقلت من خط ابن عربي في الكلام على قوله تعالى: "**إن الذين كفروا** ستروا محبتهم **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم** استوى عندهم إنذارك وعدم إنذارك عندهم **لا يؤمنون** بك ولا يأخذون عنك إنما يأخذون عنا **ختم الله على قلوبهم** فلا يعقلون إلا عنه **وعلى سمعهم** فلا يسمعون إلا **منه وعلى أبصارهم غشاوة** فلا يبصرون إلا إليه ولا يلتفتون إليك وإلى ما عندك بما جعلناه عندهم وألقيناه إليهم **ولهم عذاب** من العذوبة **عظيم**"[٥٧].

ومن تأويلات ابن عربي أيضاً:

قوله في سورة نوح ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾[٢٢: نوح] يقول: "ومكروا مكرا كبارا؛ لأن الدعوة إلى الله تعالى مكر بالمدعو؛ لأنه ما عَدِم من البداية فيدعو إلى الغاية "أدعو الله" فهذا عين المكر"(٥٨).

فها هو يدين أن الله عين كل الأشياء وأن الرسل ما يقومون به من الدعوة إنما هو مكر وخداع؛ لأننا ندعو إلى النهي عن عبادة الأوثان والأصنام وغيرها، وهذا لا يصح؛ لأنه ما ثم غير الله وما يعبد هو الله.

ويقول: "فقالوا في مكرهم: "لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً "فإنهم إذا تركوهم جهلوا الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإن للحق في كل معبود وجها يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله"(٥٩).

ثالثاً: التأويل الباطل عند الخوارج:

إن التأويل عند الخوارج لا يختلف عند غيرهم من الفرق الأخرى، ويزيد أن له ضرر على غيرهم مما يحدثه من مآسٍ على المجتمع، فهم من خلال فهمهم للنصوص الشرعية يستحلون الدماء والأموال والأعراض فالخطر من اتجاهين: اتجاه يعود عليهم، والاتجاه الآخر في المقابل: يعود على أفراد المجتمع سواء الحاكم أو المحكوم. ولا أريد ذكر الأحاديث التي تبين صفاتهم، ولكن سيكون تركيزي على تأيدهم لمعنى التأويل الباطل وغلوهم فيه.

يقول ابن حجر عن انحراف الخوارج في التأويل مع كثرة العبادة والزهد: "وكان يقال لهم القراء؛ لشدة احتياجهم في التلاوة والعبادة إلا أنهم كانوا يتأولون القرآن على غير المراد منه، ويستبدون برأيهم ويتنطعون في الزهد والخشوع وغير ذلك"(٦٠).

ومن أعظم المسائل عندهم الحكم بغير ما أنزل الله، وهي نتاج قولهم بكفر مرتكب الكبيرة وتكفير المسلم بكل ذنب فيخرج من مسمى الإيمان ويدخل في مسمى الكفر بالإضافة عدم فهمهم للمتشابه من الآيات.

أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير أنه قال: "المتشابهات آيات في القرآن يتشابهن على الناس إذا قرأوهن، ومن أجل ذلك يضل من ضل، فكل فرقة يقرأون آية من القرآن يزعمون أنها لهم، فمنها يتبع الحرورية من المتشابه قول الله: ﴿وَمَن لَّم يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤]، ثم يقرأون معها: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]، فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر، فمن كفر عدل بربه، ومن عدل بربه فقد أشرك به؛ فهؤلاء الأئمة مشركون"(٦١).

ومن تأويلاتهم الباطلة ما أخبر به عمر بن عبد العزيز عن بعض جرائم الخوارج متأولين القرآن على غير وجهه؛ وذلك في قوله لوفد الخوارج الذين أرسلوهم لمناظرته في المسائل التي نقموها على بني أمية، فكان من كلام عمر أن قال لهم: "فأخبروني عن عبدالله بن وهب الراسبي حين خرج من البصرة هو وأصحابه يريدون أصحابكم بالكوفة، فمروا بعبدالله ابن خباب فقتلوه وبقروا بطن جاريته، ثم عدوا على قوم من بني قطيعة فقتلوا الرجال وأخذوا الأموال وغلوا الأطفال في المراجل، وتأولوا قول الله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٧]، فلم يسعهم إلا الاعتراف بذلك"(٦٢).

ومن التأويلات المعاصرة للنصوص ما فسره شكري مصطفى لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[القصص: ٥٩]، فإنه يريد أن يقرر أن جماعته هي جماعة الحق فيقول: كلمة في أمها تدل على المكان الذي تبدأ فيها الجماعة المسلمة وتتحمل فيه المتاعب ... ولم تكن مكة أم القرى إلا في عهد الدولة الإسلامية فحسب... والصحيح أن لكل رسول أماً للقرى ... فأم القرى في عهد موسى عليه السلام هي مصر... ولكن ما هي أم القرى في عهدنا الحالي، عهد قيام الدولة الإسلامية مرة ثانية كما وعد بذلك الله ورسوله... أين هي أم القرى الآن في منطقة الشرق الأوسط؟ أين المكان الذي يصدر الكفر إلى العالم العربي؟ أين القرية التي حاربت من نادى الجهاد في سبيل الله؟ أين القرية التي تعدّ متجه العالم العربي هي ببداهة الآن مصر(٦٣).

بهذا يتبن التوافق بين العصرين – القديم والحديث – وكيف يصرفون الألفاظ عن ظاهرها ويبنون عليها أحكام.

المطلب الثاني: أثر التأويل الباطني على العقائد الإسلامية عند الحركات الباطنية.

أولاً: التأويل الباطني عند الشيعة الروافض.

يتبنَّى الشيعة الإمامية عقائد خطيرة حول القرآن الكريم، حيث يقولون بتحريف بعض آيات القرآن وسوره، ونقصان بعضها، هذا مع إقرارهم أن في القرآن سوراً وآيات صحيحة، ولا شك أن لتلك الاعتقادات حول القرآن الكريم أثراً في تأويل نصوص القرآن والتعامل معها، وسأورد فيما يأتي نصوصا تدل على تلك المعتقدات من أهم مصادر الشيعة الإمامية:

جاء في كتاب الكليني "أصول الكافي" الذي هو عند الشيعة الإمامية بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة، عن جعفر قوله: "ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما نزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزل إلا علي والأئمة من بعده"[٦٤].

وأخطر ما يرويه الكليني في الافتراءات حول القرآن الكريم ادعاؤه أن أكثر من ثلثي القرآن الكريم قد أسقطت آياته وسوره، حيث جاء فيه عن أحد رواتهم: "وإن عندنا لمصحف فاطمة، وما يدريهم ما مصحف فاطمة؟ قال الراوي: قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد"[٦٥].

ومن الأمثلة على الآيات التي ادعى الشيعة الإمامية أنها حرفت قوله تعالى: "ومن يطع الله ورسوله (في ولاية علي والأئمة من بعده) فقد فاز فوزا عظيما" هكذا نزلت"[٦٦].

إضافة للكليني نجد النوري الطبرسي وهو أحد علماء الشيعة المتأخرين صنف كتابا أسماه "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"، أورد فيه كلام الشيعة القائلين بالتحريف، وصنفه سنة ١٢٩٢هـ، ومن السور التي ادعى الشيعة أنها حذفت من القرآن الكريم سورة الولاية[٦٧].

ويرى علماء الشيعة الإمامية أن أخبار التحريف متواترة ولا سبيل إلى إنكارها، وأن روايات التحريف تُسقط أخبار الإمامة المتواترة[٦٨].

بناء على ما سبق من نظرة الشيعة الإمامية للقرآن الكريم، نفهم سِرَّ تأويلهم لبعض الآيات القرآنية تأويلا عجبا، وكانت عقيدة الإمامة عندهم أصلا تم تأويل العديد من الآيات بناء عليه.

ومن أمثلتهم على التأويل الباطني:

المثال الأول: جاء في كتاب "الكافي" للكليني، حجة الشيعة كما أشرت، فهو مليء بمثل هذه التأويلات التي ينسبها إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، ومن ذلك مثلاً قوله في تفسير الآية ٣٥ من سور النور: (الله نور السموات والأرض....). إن "المشكاة" فاطمة –عليها السلام–، "فيها مصباح" الحسن، "المصباح في زجاجة": الحسين، "الزجاجة كأنها كوكب دري": فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا. " يوقد من شجرة مباركة": إبراهيم عليه السلام، "زيتونة لا شرقية ولا غربية": لا يهودية ولا نصرانية، "يكاد زيتها يضيء" يكاد العلم يتفجر منها، "ولو لم تمسسه نار نور على نور" أمام بعد إمام، " يهدي الله لنوره من يشاء": يهدي الله للأئمة من يشاء[٦٩].

كما فسر الشيعة أيضاً: (مرج البحرين) بعلي وفاطمة، و(اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين ... وأن النبأ في قوله تعالى: **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾** بأنه علي بن أبي طالب[٧٠].

المثال الثاني: ويروي الكليني عن أبي الحسن أنه سأل أبا عبد الله عن قوله تعالى: **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** فقال: يريدون ليطفئوا إمامة أمير المؤمنين بأفواههم قلت قوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾** قال: يقول: والله متم الإمامة، والإمامة

هي النور، وذلك قوله ﷻ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ قال: النور هو الإمام[٧١].

المثال الثالث: كما فسر الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ بأن الحكمة هي طاعة الله، ومعرفة الإمام. وأن الحسنة الواردة في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ بأنها معرفة الولاية وحبنا أهل البيت وأن "السيئة" إنكار الولاية، وبغضنا أهل البيت[٧٢].

وكذلك يُعد القمي صاحب التفسير، والطبرسي صاحب مجمع البيان من شيوخ الشيعة، وهما من المرجعيات التي لها الوزن في أقوالهم وتفسيرهم، ولا بد من ذكر بعض تأويلاتهم الباطنية في تفسيرهم لكتاب الله.

المثال الرابع: تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقرآن﴾ قال: نزلت لما رأى النبي ﷺ في نومه كأن قرودا تصعد منبره فساءه لهم؛ ليعهموا فيها، والشجرة الملعونة في القرآن كذا نزلت وهم بنو أمية"[٧٣].

المثال الخامس: تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: حدثنا جعفر بن أحمد، عن عبد الكريم بن عبد الرحيم، عن محمد بن علي، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر (ع) قال: سألته عن قول الله لنبيه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال: تفسيرها لئن أمرت بولاية أحد مع ولاية علي من بعدك ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين[٧٤].

فتفسير الشرك عند الشيعة ترك بيعة الأئمة الاثني عشر وجاء في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني بني امية"[٧٥].

المثال السادس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[٧٣: التوبة].

يقول الطبرسي "وروى في قراءة أهل البيت "جاهد الكفار بالمنافقين"؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يقاتل المنافقين، وإنما كان يتألفهم؛ لأن المنافقين لا يظهرون الكفر، وعلْم الله تعالى بكفرهم لا يبيح قتلهم، إذ كانوا يظهرون الإيمان"[٧٦].

المثال السابع: قوله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فأحبط أعمالهم﴾[٩: محمد].**

"قال أبو جعفر ؑ: كرهوا ما أنزل الله في حق علي ؑ فأحبط أعمالهم؛ لأنها تقع على الوجه المأمور به، ثم نبههم سبحانه على الاستدلال على صحة ما دعاهم إليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله"[٧٧].

هذه بعض الأمثلة من كتابي التفسير عند (القمي والطبرسي) ونرى وجود التأويل الباطني واضحاً، فهما يريدان أن يثبتا ولاية علي والأئمة من بعده وأن يقدحوا في بني أمية، والحكم عليهم أنهم كفار مرتدون.

ومسألة القول: بأن لنصوص القرآن باطنا يخالف ظاهرها شاعت في كتب القوم، وأصبحت أصلاً من أصولهم؛ لأنه لا بقاء لمذهبهم إلا بها أو ما في حكمها، ولهذا عقد صاحب البحار بابا لهذا بعنوان: "باب أن للقران ظهرا وبطنا" وقد ذكر في هذا الباب أربعاً وثمانين رواية ،وهذه الروايات هي قليل من كثير مما أورده في كتابه في هذا الموضوع. فقد قال في صدر هذا الباب إنه: "قد مضى كثير من تلك الأخبار في أبواب كتاب الإمامة ونورد هنا مختصرا من بعضها"، ثم ساق الروايات الاربع والثمانين. وفي "تفسير البرهان" عقد بابا ممثلا لما في "البحار" بعنوان: "باب في أن القرآن له ظهر وبطن"[٧٨]. وهذا ما قلناه –أولاً– وهو: كثرة مثل هذا النوع من التأويل.

ثانياً: التأويل الباطني عند الإسماعلية:

الإسماعلية: هي فرقة انشقت عن الشيعة الإمامية بعد جعفر الصادق، وجعفر كان له ولدان إسماعيل وموسى الكاظم، والقاعدة عند الشيعة: إن الذي يتولى الإمامة بعد الأب الابن البكر، مستدلين بقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف: ٢٨]

والعقب الابن البكر، ولكنّ إسماعيل كان في زمن أبيه ملحداً زنديقاً وكان يعاشر الملاحدة، فتبرئ منه أبوه جعفر وجعل ابنه الثاني هو الإمام (موسى)، فلم يقبل فريق من الشيعة هذا الرأي فزعموا أن ابنه الاكبر إسماعيل مات فلا بد أن تنتقل الإمامة في ابنه وهو (محمد بن إسماعيل) الذي تبناه شخصان هما ميمون القداح، وعبد الله بن ميمون القداح، وهؤلاء هم الذين أنشأوا حقيقة الفكر الإسماعيلي القائم على الباطنية آخذين لها من الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية، وفسروا القرآن الكريم تفسيرا باطنيا(٧٩).

يُعد التأويل الباطني إحدى الوسائل الرئيسية التي اتخذتها الإسماعيلية لجعل عقائدها شرعية وصحيحة حتى يوهموا الناس بأن هذه الآراء موافقة للشريعة، وقدموا هذا التأويل الفاسد وأخروا التفسير الصحيح ورموه وراء ظهورهم، ولكنهم لخبثهم أضفوا على تأويلهم مسحة شرعية فزعموا بأن محمدا ﷺ أفضى لوصيه علي بالمعنى الباطني لإثبات القرآن"(٨٠).

فكان التأويل الباطني عند الإسماعيليين دعامة رئيسية، تضاف إلى الدعامة الأخرى، وهي عقيدتهم في وجوب الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر.

"وقد ذهب الإسماعيليون إلى أن لكل شيء (ظاهر محسوس) تأويلا باطنيا لا يعرفه الا الراسخون في العلم وهم الأئمة، وهؤلاء الأئمة يودعون هذا العلم الباطني لكبار الدعاة بقدر معين؛ لأن التأويل الباطن قد خص الله به عليا، فكما أن الرسول ﷺ خص بالتنزيل، فكذلك علي بن أبي طالب قد خص بالتأويل"(٨١).

وقد جعل الإسماعيلية من شروط الإيمان أن يؤمن الإسماعيلي بالظاهر والباطن معا، والإيمان بواحد منهما دون الآخر يعد خروجا من المذهب وكفرا، ولقد قال الشيرازي الداعي: من عمل بالباطن والظاهر معا فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه"(٨٢).

كذلك تزعم الإسماعيلية ان لديهم كتابا توارثوه عن علي هو **(الجفر)**، الذي ينسب إلى جعفر الصادق. وتعتقد الإسماعيلية أن علي بن أبي طالب هو الذي وضع أصوله، ليستبقي علم التأويل بالباطن في سلالته، ويتناول كما يزعمون العلوم الغيبية والباطنية التي اورثها علي لذريته. ويظهر أن هذا الزعم هو الذي أوحى لجعفر بن منصور اليمن بتأليف كتاب **(الجفر الأسود)**، الذي يعتبر امتداداً للكتاب الأول(٨٣).

وسأورد فيما يأتي نماذج من التأويل الباطني عند الإسماعيلية يكشف خطورته وأهدافهم منه:

"ويبدو أن كل شيء عند الإسماعيليين يمكن أن يخضع لـ (قانون) التأويل، فهو يتناول معظم آيات القرآن الكريم والأحاديث والشرائع والفرائض الدينية، فلا فرق عندهم بين نص محكم ومتشابه، مما يدل على نيتهم في اتخاذ هذا التأويل العبثي وسيلة لنسخ الإسلام، حيث الباطن عندهم ينسخ المعنى الظاهر.

ولا بد لنا من إثبات بعض نماذج من التأويلات، لتظهر كيفية تجيير الإسماعيليين للنصوص في خدمة أهدافهم:

١- فقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[٣٦: الأعراف]، يزعم الإسماعيليون أن (آيات الله) المذكورة في الآية هم الأئمة، لأنهم الأعلام الدالة على الله.

٢- وكذلك نراهم في قوله تعالى: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾**[٧٢: الأحزاب]، وقد أول المؤيد الأمانة على أنها الولاية، والسماوات والأرض والجبال بالحدود الحية الناطقة، فالنطقاء هم (السماء) والأسس والأئمة هم (الأرض)، والحجج هم (الجبال)، أما قوله تعالى: **﴿وَحَمَلَهَا الإنسان ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾** فقد زعم المؤيد في تأويلها: أن الإنسان هو الضد الذي تقمص قميص خلافة النبوة بغير سلطان من الله تعالى ولا نص من رسوله(٨٤).

٣- تأويلهم للعبادات والفرائض والتشريعات:

لم تقتصر الإسماعيلية لتأويل القرآن فحسب بل تجاوزا الأمر حتى أولوا العبادات والتشريعات حسب الباطن الذي ينادون فيه ويتناسب مع مراميهم، "فأولوا الحلال بانه الواجب إظهاره وإعلانه، والحرام الواجب ستره وكتمانه، وأما الصلاة: فهي صلة الداعي إلى دار السلام بصلة الأبوة في الأديان إلى الإمام، والزكاة: إيصال الحكمة إلى المستحق، والصوم: الإمساك عن كشف الحقائق لغير أهلها، والحج القصد إلى صحبة الأئمة، والإحرام الخروج من مذهب الأضداد، وأما الزنا فهو اتصال المستجيب من غير شاهد، والربا الرغبة في الإكثار وطلب الحطام وإفشاء الأسرار، والمسكر الحرام: ما يصرف العقل عن التوجه إلى طلب معرفة الإمام[٨٥].

فغاية الدين عندهم الإباحة وجعل الدين خلف الظهر مع عدم العبء به، فهم في استشهادهم بالقرآن والحديث والفرائض الإسلامية وتأويلها بالعلم الباطني، يحققون أربعة أمور:

١- "عدم رفض القرآن بوصفه كتاباً دينياً مقدساً.

٢- التخلي عن أحكامه وفروضه من خلال تأويلها.

٣- وفي الوقت نفسه دعم حركتهم وعقائدهم وتعزيزها بأسانيد قرآنية.

٤- وفي نفيهم _أو تجاوزهم _المعاني الظاهرية للقرآن، يبرز الفراغ الفكري الذي كانت تملأه تلك المعاني. ومن هنا يفتح المجال لنزعاتهم وتطلعاتهم؛ كي تتحرك وتؤثر بحرية بعيدة المدى"[٨٦].

وعليه، فإن هذا التأويل كان مزيجا من الأفلاطونية، واليهودية، وخصوصاً القبالية[٨٧].

<u>ثالثا: التأويل الباطني عند النصيرية (العلوية):</u>

النصيرية: هي فرقة تعد من غلاة الشيعة الباطنية الذين تبنوا أراءً وأفكاراً منحرفة في العقائد أدت بهم إلى الخروج عن الإسلام.

تنسب هذه الفرقة إلى أبي شعيب محمد ابن نصير البصري النميري الذي كان مولى أو من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية الاثنتي عشرة.

وادعى ابن نصير أنه وكيل لابن الحسن (محمد) أو الباب له ثم ادعى أنه رسول الله وكان لهذا الشخص كثير من الانحرافات العقدية، حيث ادّعى الربوبية، وقام بإباحة المحارم، وكان يقوم بالتناسخ ثم مات سنة ٢٦٠هـ، ثم تولى المذهب بعده أبو محمد عبد الله بن محمد الحنان الجنبلاني وبه ظهرت الفرقة الجنبلانية وبعد وفاته سنة ٢٨٧هـ، أصبح الخصيبي المرجع الأعلى للمذهب النصيري، فهو أشهر من صنف في عقائدهم وصار لهم مركزين: الأول في حلب وترأسه محمد بن علي الجلي، والثاني في بغداد ويرأسه الشيخ علي بن الجسري، ثم انتقل مركزهم في اللاذقية[٨٨].

قامت عقائد النصيرية على أساس الغلو الشديد في التأويل الباطني الذي ينادون به، وهذا يظهر جلياً من خلال دعواهم في علي أنه يعلم في الباطن، وأن هذا التأييد أخذه من ربه، وأن النبي ﷺ لم يحصل عليه واستدلوا بحديث موضوع لا أصل له ونصه: (أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر) وأن الرسول قاتل الكفار في الظاهر وعلي قاتل المنافقين بالباطن[٨٩].

ويزعمون أن الإله هو علي بن أبي طالب قد فاض على الاسم محمد ﷺ والباب سلمان الفارسي بالإضافة لتجسيد الإله"[٩٠].

ويزعمون أن معرفة المراتب ظاهراً وباطناً هي ذروة العبادة، وتُغْنيهم عن الفروض والعبادات؛ لأنها في نظرهم أغلال للجاهلين والمقصّرين)[٩١].

ومن تأويلاتهم الباطنية:

١- **الشهادة:** التي هي أول ركن من أركان الإسلام، فماهي عند النصيرية؟
هي أن تشير إلى صيغة (ع-م-س) التي هي رموز لـ (علي بن أبي طالب، ومحمد، وسلمان الفارسي) على الترتيب"(٩٢).

٢- **الصلاة:** عبارة عن حب خمسة أشخاص هم: علي، والحسن، والحسين، ومحسن وفاطمة، وإذا ذكر هؤلاء يغني عن الغسل من الجنابة، والوضوء، وعن الصلوات المفروضة.

٣- **الصيام:** حفظ السر المتعلق بثلاثين رجلاً تمثلهم أيام رمضان، وثلاثين امرأة تمثلهن ليالي رمضان(٩٣).

٤- **الزكاة:** أما الزكاة عندهم فهي رمز لسلمان الفارسي(٩٤).

٥- **الجهاد:** أما الجهاد عند النصيرية فهو على نوعين ذكرها صاحب الباكورة السليمانية:
أولها: الشتائم علي أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم، وعلى جميع الطوائف التي تعتقد بأن علي بن أبي طالب أو الأنبياء، أكلوا، أو شربوا، أو تزوجوا، أو ولدوا من نسائهم؛ لأن النصيرية يعتقدون بأنهم نزلوا من السماء دون أجسام، وأن الأجسام التي كانوا فيها إنما هي أشياء، وليست هي في الحقيقة أجسام.
والنوع الثاني: إخفاء مذهبهم عن غيرهم، ولا يظهرونه ولو أصبحوا في أعظم الخطر، وهو خطر الموت"(٩٥).

"وهكذا نتبين أن جميع الفرائض والعبادات الإسلامية لا اعتبار لها عند هذه الطائفة بأفعالها وأعمالها الظاهرة، وإنما ذِكْر بعض الأشخاص يغني عن كل هذه الأعمال التي يقوم بها الجهلة المقصرون من أهل الظاهر. وهذا يفسر لنا عدم وجود المساجد في قراهم ومدنهم، حيث يقيمون الصلاة في أماكن خاصة وسرية؛ لأن الصلاة لا تؤدى وفق الأسلوب المعروف عند المسلمين، ولكنها مجموعة رموز تدل على أشخاص معينين يرددها النصيري في مواقف العبادة والابتهال، لهذا فهم لا يشترطون الطهارة في صلاتهم هذه، فالجماع والاحتلام لا يفسدان الطهارة، وإنما الذي يفسدها موالاة الأضداد والجهل بالعلم الباطني، فتكون الطهارة _ إذن _ معاداة الأضداد، ومعرفة العلم الباطني"(٩٦).

المبحث الرابع:
موقف الإسلام من التأويل الباطني والفرق الباطنية.

بعد عرض مسألة التأويل الباطني، وبيان أسباب نشأته ومصادره، ونماذج من تأويلات الحركات الباطنية أو الإسلامية، آن لنا الأوان أن نقف وقفة علمية نبين من خلالها موقف الإسلام من التأويل الباطني؛ حتى لا يلتبس أمره على أحد، خاصة، وأنه ينطلق من النصوص القرآنية.

المطلب الأول: وضوح النصوص القرآنية والنبوية.

النصوص القرآنية والنبوية واضحة محكمة لا ألغاز فيها ولا رموز، وهذه مُسلمة يقينة عقدية واضحة، والنبي -عليه الصلاة والسلام- تركنا على المحجة الواضحة ليلنا كنهارنا، يقول سبحانه: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[١: هود]، فآيات القرآن محكمة لا غموض فيها، وما احتاج فيها لبيان وتوضيح بينه -سبحانه- في آيات أخر أو بينه النبي -عليه الصلاة والسلام-.

وبالتالي لا يقبل الإسلام أي تأويلات لنصوصه لا تمت إلى الإسلام بصلة، وإن كان قائلوها يسمون بأسماء إسلامية(٩٧)، يقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧-٨]، فالله سبحانه أخبرنا في هذه الآيات أن الذين في قلوبهم مرض وخروج عن الحق إلى الباطل، إنما يأخذون منه المتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها ابتغاء الفتنة؛ لإضلال أتباعهم؛ إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعهم بالقرآن الكريم.

فكيف إذا عرفنا أن مصادر التأويلات الباطنية عند الحركات الباطنية جميعها هي الفلسفة اليونانية الأفلوطونية التي ليست من الإسلام في شيء، وإن هذه الحركات اتخذت التأويل الباطني وسيلة خفية لهدم عقائد الإسلام وشعائره من داخله متسترة بحب آل البيت، وبالتالي فإن كشف هذه الحركات الباطنية يكون بكشف مصادرها وأهدافها من التأويلات الباطنية، وعند ذلك تتساقط كل التأويلات الفاسدة التي أتوا بها؛ لهدم العقيدة الإسلامية.

المطلب الثاني: النصوص الشرعية بين الظاهر والباطن.

يعتقد أرباب التأويل الباطني أن وراء المعنى الظاهري لآيات القرآن والذي لا أهمية له عندهم حقائق فلسفية تستخلص بالتفسير المجازي، وإن للقرآن ظاهراً وباطناً، فالظاهر يعرفه العوام، والباطن يعرفه العلماء، ولكي يضفوا مسحة شرعية على تأويلاتهم الباطنية زعموا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أفضى لوصيه علي بالمعنى الباطني لآيات القرآن(٩٨).

وفي الحقيقة فإن ما يدعيه أصحاب الحركات الباطنية هو محض كذب وافتراء، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- في كل سيرته العطرة كان يبين القرآن بيانا واضحا، ولم يثبت عنه أنه خص أحدا من الصحابة بتفسير باطني للنصوص الشرعية، أو أنه كان يفسر النصوص تفسيرا ظاهريا للعوام وباطنيا للخواص، بل كان تفسيره للأمة كلها وضاحا جليا لا خفاء فيه.

وفَرْق بين ما يوجد في النصوص من ثروة في الدلالات والمعاني التي تحملها اللغة العربية والتي لا تتعارض مع عقيدة الأمة، والتأويلات الباطنية التي تريد نسف عقائد الأمة من التوحيد، والبعث، واليوم الآخر، ونسف أركان الإسلام، وإشاعة الإباحية في المجتمع؛ لتهدم الشريعة بأسرها.

وفي الختام أقول: إن التأويلات الباطنية ما هي إلا تحريفات لمعاني النصوص الشرعية؛ لمخالفتها لكل القواعد العلمية والشرعية، فالتحريف كما يكون للفظ يكون للمعنى أيضاً كما أشار بعض العلماء، قال ابن تيمية: "تحريف الكلم عن مواضعه كما ذمه الله تعالى في كتابه **وهو إزالة اللفظ عما دل عليه من المعنى**"(٩٩)، وقال ابن القيم: "والتحريف العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره وهو نوعان تحريف لفظه وتحريف معناه"(١٠٠).

بل إن التحريف لمعاني النصوص أشد خطراً من التحريف اللفظي؛ لخفائه على بعض الناس، ومن هنا وجبت الحيطة والحذر، ولا شك أن اليقظة الفكرية والعلمية من أهم السبل؛ لمواجهة هذا التحريف وخطره على الإسلام وعقائده.

الخلاصة والنتائج:

١- إن مشكلة التأويل الباطني للنصوص الدينية مشكلة عامة في الديانات التي عندها نص إلهي، ومن أبرز مصادرها الفلسفة اليونانية، وخاصة الأفلاطونية المحدثة.

٢- التأويل الباطني أحد أخطر أنواع التأويل الفاسد، ويتم التركيز عليه من المستشرقين لبيان أنه الإسلام.

٣- تكمن خطورة التأويل الغنوصي الباطني في أن غرضه هو تفريغ النص الديني من محتواه، وإلغاء أهم عقائد الإسلام وخاصة عقائد: التوحيد والبعث والجزاء، ومن هنا تكمن أهمية التحذير منه وكشف أساليبه.

٤- لا يفرّق أصحاب التأويل الباطني بين نص متواتر وغير متواتر، أو محكم وغير محكم، فالكل عندهم سواء، وهنا خطورة هذا اللون من التأويل الباطني العبثي.

٥- علينا أن نفرق بين التأويل الذي غرضه تنزيه الذات الإلهية أو الدفاع عن العقائد الإسلامية حتى وإن أخطأ صاحبه، والتأويل الباطني العبثي الذي يريد أن ينسخ الإسلام، حيث يستبيح كل ضوابط اللغة، والثوابت العقدية، كما هو الحال عند فرق الإسماعيلية والنصيرية والدروز.

٦- الرسوخ في العلم هو طريق التأويل الصحيح، فمسلك المتشابه مِفتاحه التمكن من العلم والرسوخ فيه وليس الظنون، وخاصة التمكن من لغة القرآن الكريم، ومن فهم محكماته.

٧- لقد أدى التأويل العبثي الباطني إلى ردة فعل عند العلماء تتمثل في إنكارهم للمجاز في القرآن الكريم؛ سداً لباب التأويل العبثي، لكن المنهج العلمي يقتضي منا رفض التأويل العبثي، وقبول المجاز في القرآن الكريم وفق الأصول اللغوية التي تدل عليه.

٨- علينا أن نفرق بين التصوف الملتزم بالشريعة بوصفه منهاجاً في تهذيب النفوس، والنزعة الباطنية عند بعض غُلاة الصوفية، والذين كان التأويل الباطني للنصوص الدينية أحد وسائلهم للتحلل من نصوص الشريعة.

٩- في ظل الهجمة المعاصرة على نصوص الشريعة، والدعوة إلى اتباع المناهج الغربية في تأويل النصوص الدينية كالهيرمينوطيقيا، والتي تعني: نظرية موت المؤلف، وبالتالي تفسير القارئ للنصوص الدينية كما يريد هو، لا كما يريد المؤلف، في ظل هذه النظريات ينبغي الوعي الشديد بهذه المناهج التأويلية التدميرية المعاصرة للنصوص الدينية، حتى لا نُؤتَى على حين غرة في ديننا.

الهوامش:

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ج١١، ص٣٢.

(٢) ابن فارس، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، ج١، ص١٦٢.

(٣) **مسند الإمام أحمد**، السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ج١، ص٣١٤.

(٤) **صحيح مسلم**، دار الجيل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ج٢، ص٥٠.

(٥) وهو من الكتب القيمة في الرد على من قال بالتأويل بمعناه المذموم حتى أنه -رحمه الله- سماه بالطاغوت، فقال: كسر الطاغوت الأول وهو التأويل.

(٦) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية، **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، دار العاصمة – الرياض، ط٣، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ج١، ص١٧٨.

(٧) الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ح٦، ص٢٠٣.

(٨) يقسم الكلام إما طلباً وإما خبراً، فإن كان طلباً فتأويله فعله، وإن كان خبراً فتأويله وقوعه كما في الأمثلة التي سأذكرها إن شاء الله، ينظر: **الصواعق المرسلة وشرح العقيدة الواسطية**، لابن عثيمين، دار الثريا، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص٦٩-٧١.

(٩) ابن القيم، **الصواعق المرسلة**، ج١، ص١٧٦.

(١٠) ينظر: الصواعق المرسلة، وشرح العقيدة الواسطيه.

(١١) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الجرجاني، **التعريفات**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ ١٤٠٥هـ.

(١٢) الرازي، محمد بن عمر، **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ج٧، ص١٣٩.
(١٣) ابن تيمية، أحمد الحراني، **موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول**، مطبعة بولاق، ١٣٢١هـ، ج١، ص١١٥-١٢٠.
(١٤) ابن القيم، **الصواعق المرسلة**، ج١، ص١٧٨.
(١٥) الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٧، ص١٧٧.
(١٦) ابن تيمية، **موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول**، مرجع سابق، ص٧٣ وص١١٧.
(١٧) ينظر: الكردي، راجح، علاقة صفات الله بذاته، دار المأمون، عمان، ط٣، ص١٩٦.
(١٨) صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية**، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، (لبنان)، ١٩٨٢م، ج١، ص٢٣٤.
(١٩) سيمرُّ معنا عن هذه الشخصية بشكل أوسع وكيف كان تأثره بهم.
(٢٠) يقول صليبا: "لا بد من إخراج النص من دلالته الظاهرية إلى دلالته الباطنية بطريق التأويل، وعنده أن الظاهر لا يتجلى إلا لأهل البرهان، وهو الذي يؤدي إلى رفع تعارض الأقاويل وباطنها"، **المعجم الفلسفي**، ج١، ص٢٣٤. ولكن الصحيح أنه من خلال كثير من النصوص نجد التناقض وليس رفعه وهذا ما سأذكره عن فيلون اليهودي.
(٢١) بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، ١٩٩٧م، ج١، ص٧٥١.
(٢٢) ينظر: **الملل والنحل**، ص٢٠١، ٢٠٢. **المعجم الفلسفي**، صليبا، ج١، ص١٩٥، ١٩٦.
(٢٣)عمر فروخ، **تاريخ الفكر العربي**، ص١٥٢.
(٢٤) العرفانيون: كانوا موجودين قبل ظهور النصرانية ثم ازداد عددهم وبروزهم بعد ظهورها، وكانوا يعرفون بأسماء مختلفة منهم الحرنانية الكلدانيون المعروفون بالصابة أو الصائبة، ومنهم الثنوية الكلدانيون، ومنهم المفانية أو المانوية أتباع ماني، ومنهم المرقيونية والديصانية والأنسية وسواها. ويبدو أن كل فرقة من هذه الفرق كانت تنقسم فرقا أخرى. وكلهم يسمون باسم الباطنيين، **تاريخ الفكر العربي**، ص١٤١.
(٢٥) الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٢٧.
(٢٦) عبد الحميد، عرفان، **الفلسفة الإسلامية (دراسة ونقد)**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥٢.
(٢٧) **المرجع السابق**، ص٣٧.
(٢٨) بدوي، **مذاهب الإسلاميين**، ج١، ص٧٥٤.
(٢٩) لقب يطلق على الفلسفة والحضارة اليونانية التي انتشرت في الإسكندرية.
(٣٠) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ج١، ص٨٠.
(٣١) عمر فروخ، **تاريخ الفكر العربي**، ص١٣٢-١٣٤. ولخصها: الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٣٨، ٣٩.
(٣٢) بدوى، **مذاهب الإسلاميين**، ج١، ص٧٥٦.
(٣٣) ديورانت، ول وايرل، **قصة الحضارة**، ترجمة: محمد بدران، بيروت وتونس، ج١١، ص١٠٣ بتصرف.
(٣٤) **مذاهب الإسلاميين**، ج١، ص٧٥١.
(٣٥) فروخ، عمر، **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٢م؛ وط٤، ١٩٨٣م، ص١٣١، بتصرف.
(٣٦) **المرجع السابق**، ص١٣١، ١٣٢
(٣٧) عباس، إميل، **القبالا والسحر اليهودي**، ط١، مكتبة السائح، طرابلس، ٢٠٠٥م، ص٩.
(٣٨) ينظر: نويهض، **بروتوكولات حكماء صهيون**، دار الجليل، عمان، ط١، ١٩٦٧م، ج٤، ص٢٠٤.
(٣٩) سفر أشعيا ٦: ٩.
(٤٠) مذاهب الإسلاميين، ج١، ص٧٥٨: ٧٥٧.

(٤١) موسى، محمد، **بين الدين والفلسفة**، دار المعارف، مصر، ط٢، ٢٠٠٣م، ص١٢٦-١٢٩.

(٤٢) **المصدر السابق**، ص١٢٦-١٢٧.

(٤٣) فروخ، عمر، **تاريخ الفكر العربي**، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٤٤) الطبري في تاريخه، وابن كثير، **في البداية والنهاية**، ١٤٣٩هـ، بيروت، ص٤٨. ورواه الأسدي، سيف بن عمر الصلي، **الفتنه ووقعة الحمل**، تحقيق: أحمد بن عمروش، دار النفائس.

(٤٥) ينظر: وافي، علي عبد الواحد، **الأسفار المقدسة**، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص٣٤، ص٥٥.

(٤٦) التناسخ: هو انتقال النفس من جسد توفي حديثا إلى جسد ولد حديثا سواء أكان الجسدان جسدي إنسانين أو جسد إنسان وجسد حيوان، والسعادة والشقاء اللذان يلقاهما الإنسان عادة في الحياة مرتبان على ما كان قد اسلفه الإنسان (يوم كانت نفسه في جسد آخر، في زمن سابق) وجزاء على ذلك "فروخ، **تاريخ الفكر العربي**، ص٤٨.

(٤٧) وهنا ملاحظة مهمة للغاية وهي: أن هناك بعض الأقوال: إن ابن سبأ كان متأثراً بالقبالا، ومعنى هذا أنه هضم هذه الأقوال والفكر العقدي منهم بشكل لا أقول جيد بل ممتاز.

(٤٨) الخطيب، محمد بن أحمد، **الحركات الباطنة**، مكتبة الأقصى، ط١، ١٩٨٤، ص٣٢.

(٤٩) الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ج٤، ص٣٤٠.

(٥٠) عبد الفتاح، إمام، **معجم ديانات وأساطير العالم**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٩.

(٥١) ينظر:، أبو زهرة، محمد، **محاضرات في النصرانية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٧٢.

(٥٢) يدوي، **مذاهب الإسلاميين**، ج١، ص٧٦٤.

(٥٣) فرق السبئية، النوبختي، ص٢٠، ٢٧.

(٥٤) فرق السبئية، النوبختي، ص٢٠، ٢٧. **وتاريخ الدولة الفاطمية**، حسن إبراهيم، ص١٩. نقلاً عن كتاب: **الحركات الباطنية**، ص٢٢.

(٥٥) معناها أن الله والعالم شيء واحد.

(٥٦) القاشاني، **شرح فصوص الحكم** ص٧٧، نقلاً عن كتاب: عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، مكتبة الرشد، ط١، ٢٠٠٣م، لأحمد القصير، ص٤٢.

(٥٧) القاري، علي بن سلطان محمد الهروي المكي الحنفي، **الرد على القائلين بوحدة الوجود**، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٩٥م، تحقيق: علي رضا بن عبدالله بن علي رضا، ص١٤١.

(٥٨) ابن عربي، **فصوص الحكم**، ص٧٢، ٧١.

(٥٩) **المرجع السابق**، ص٧٢.

(٦٠) ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، ج١٢، ص٢٨٣.

(٦١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، تحقيق: مركز هجر للبحوث، دار هجر - مصر، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ج٣، ص٤٥١.

(٦٢) ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر النمري، **جامع بيان العلم وفضله**، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ، بيروت، ج٢، ص١٠٦.

(٦٣) التوسمات، ١٩-٢١، نقلاً عن: كتاب مشكلة الغلو في الدين في العصر الحاضر الأسباب -الآثار-العلاج، عبدالرحمن اللويحق، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٦٤) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، **الأصول من الكافي**، دار صعب، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ، ج١، ص٢٢٨.

(٦٥) **المرجع السابق**، ج١، ص٢٣٩.

(٦٦) **المرجع السابق**، ج١، ص٤١٤.

(٦٧) مال الله، محمد، **الشيعة وتحريف القرآن**، ط٢، ١٤٠٥هـ، ص٥٧.

(٦٨) **المرجع السابق**، ص٨٣.

(٦٩) الكليني، **الأصول من الكافي**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٥.

(٧٠) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج١٣، ص٣٥٩-٣٦٠. والمراجعات، **الموسوية**، ص٧٣، هامش ٣. نقلاً عن دراسة عن: **الفرق في تاريخ المسلمين** "الخوارج والشيعة"، ٢٦٣.

(٧١) الكافي، الكليني، **مرجع سابق**، ج١، ص١٩٥-١٩٦.

(٧٢) **المرجع السابق**، ج١، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٧٣) القمي، علي بن إبراهيم، **تفسير القمي**، صححه وقدم له: طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، إيران، ج٢، ص٢١.

(٧٤) **المرجع السابق**، ج٢، ص٢٥١.

(٧٥) **المرجع السابق**، ج٢، ص٢٥٥.

(٧٦) الطبرسي، **مجمع البيان**، الفضل بن الحسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٣، ص١٠٠.

(٧٧) **المرجع السابق**، ج٦، ص٣٢.

(٧٨) البحار ١٩/١، نقلاً عن: القفاري، ناصر عبدالله، **أصول مذهب الشيعة الاثنى عشرية عرض ونقد**، ص١٣٢.

(٧٩) ينظر: حسين، محمد كامل، **طائفة الإسماعيلية**، ص١٢. والشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، (١/١٩٢).

(٨٠) الخطيب، محمد أحمد الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٣٠، بتصرف.

(٨١) المرجع السابق،، ص١٣٠.

(٨٢) الشكعة، مصطفى، **إسلام بلا مذاهب**، الدار المصرية اللبنانية، ط٨، ١٤١١هـ-١٩٨٩م، ص٢٥٠.

(٨٣) ينظر: كتاب: حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، الذي تحدث عن هذا الكتاب ص٤٨٥. نقلاً عن: الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص١٣١.

(٨٤) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق: محمد كامل حسين، ص١٢٢، ٨٥. نقلاً عن: الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص١٣٢، ١٣٣.

(٨٥) أربع مسائل إسماعيلية، عارف تامر- الرسالة الثالثة (الدستور ودعوة المؤمنين)، للطيبي، ص٧١، ٧٠. نقلاً: عن الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص١٣٣.

(٨٦) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية، سامي العياش، ص١٦٠. نقلاً عن: الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص١٣٣.

(٨٧) نسبة إلى القبالة وهو كتاب فيه التأويل الخفي للتوراة، وفيه سرية التعاليم وإمكان فك رموز التوراة وكذلك رمزية الأعداد والحروف، **المعجم الفلسفي**، جميل صليبا.

(٨٨) ينظر: المقالات والفرق، سعد القمي، قدم له وعلق عليه محمد جواد مشهور، مطبعة حيدري، طهران، ١٩٦٣م، ص١٠٠. والحركات الباطنية في الإسلام، مصطفى غالب، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٢٧٢. نقلاً عن: كتاب دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)، أحمد محمد أحمد جلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط٣، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، ص٣٥٧-٣٥٩، بتصرف.

(٨٩) ينظر: جلي، أحمد، **دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة)**، ص٣٦٢، بتصرف.

(٩٠) ينظر: الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٤٥، بتصرف.

(٩١) الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٣٤٩.

(٩٢) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة:

مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية، ج٢، ص٣٩٦.

(٩٣) الحلبي، سليمان عبدالله، **طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها وتأويلاتها الباطنية**، أمواج للطباعة، ط٣، ٢٠١٣م، ص١٧٨.

(٩٤) **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، ج٢، ص٣٩٦.

(٩٥) الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٣٩٢. وينظر: الحلبي، **طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها وتأويلاتها الباطنية**، ص١٧٨.

(٩٦) الخطيب، **الحركات الباطنية**، ص٣٩٠*٣٩٣، بتصرف.

(٩٧) من تعليق أحمد شاكر على التأويل في: دائرة المعارف الإسلامية، (٥٢٤/٤).

(٩٨) جولد تسيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ص١٥٦.

(٩٩) ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٣، ص١٦٥.

(١٠٠) ابن القيم، **الصواعق المرسلة**، ج١، ص٢١٥.